مركز باحث للدراسات الفلسطينية والاستراتيجية

التقدير نصف الشهري

تحليل للتطورات السياسية والأمنية في «إسرائيل»

www.bahethcenter.net
Email: baheth@bahethcenter.net
bahethcenter@hotmail.com

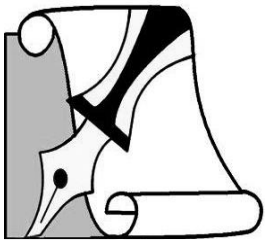

باحث للدراسات

الفلسطينية والاستراتيجية

تحليل نصف شهري للتطوّرات السياسية والأمنية في «إسرائيل»

أهداف المركز الرئيسية:

1 إعادة فلسطين إلى موقعها الحقيقي كقضية مركزية للأمة.

2 الترويج للقيم الجهادية والنضالية في إطار استراتيجية تحرير فلسطين.

3 بناء علاقة متينة مع النخب والشخصيات المعنية بالقضية الفلسطينية.

4 إصدار دراسات وأبحاث وتقارير ذات بعد استراتيجي وتحليلي.

اليأس الإسرائيلي من إحراز "نصر كامل وواضح"

1 – مدخل:

لقد تعرّض رئيس حكومة العدو، بنيامين نتنياهو، لانتقادات لاذعة، بسبب إصراره على الاستمرار بحربه الوحشية على غزة، وفْق مصطلحه المُفضّل "النصر الكامل"، وقيامه بالتعطيل المتعمّد للتوصل لاتفاق تبادل أسرى مع المقاومة؛ كونه يدرك أن مجرّد توقّف الحرب لأسابيع معدودة سيُعَرّض حياته السياسية للخطر، ويدفع به للمحاكمات بالفساد والفشل في 7 أكتوبر/ تشرين الأول2023. وعلى هذا الصعيد، قال رئيس الاستخبارات العسكرية السابق، عاموس يدلين، "إن المجتمع الإسرائيلي يدرك أن نتنياهو يقوده نحو مأساة استراتيجية". وأشار إلى "أن استمرار الحرب بغزة وسط تعدّد الجبهات المفتوحة سيجرّنا إلى حرب طويلة." وأضاف: "إن استراتيجية النصر المطلق التي يتّبعها نتنياهو تخدم هدف إيران لسَحْق إسرائيل بواسطة حرب استنزاف". وحذّر نائب قائد جيش الاحتلال الأسبق، والجنرال في الاحتياط، يائير غولان، من أنّ إطالة أمَد الحرب تعرّض أمن إسرائيل للخطر، مشدّداً على أن الصفقة هي الحل. وفي مقال نشره موقع صحيفة "هآرتس" قال غولان إن هذه المعركة مستمرّة إلى ما لا نهاية. وأنا أقول ما أقول لأنه لم يكن من الصواب عدم إنهاء هذه الحرب منذ زمن طويل، بل لأن استمرار هذه المعركة يخدم المصالح السياسية للسيّد الذي فَرّطَ بأمن إسرائيل اليوم؛ وهذا الشخص لا يزال، للأسف، رئيس حكومتها. ومضى غولان في توجيه سهام نقْده لحكومة الاحتلال ورئيسها بقوله: "لطالما اقتضت العقيدة الأمنية الإسرائيلية، على امتداد وجود الدولة الإسرائيلية، أنّ على الدولة خوض حروب قصيرة، بقَدر الإمكان، ونقْل القتال إلى ساحة العدو بأسرع وقت ممكن. أما في حرب "السيوف الحديدية"، فقد تمّ التخلّي عن هذه العقيدة العسكرية. فالحرب الراهنة ليست فقط حرباً مستمرّة إلى الأبد، بل تدور على أراضينا. لقد أضحى قطاعان من هذا البلد خاليَين من سكّانهما، وأصبح عشرات الآلاف من الإسرائيليين لاجئين في وطنهم." وأضاف أن استمرار الحرب يُكبّدنا أثماناً باهظة في صفوف المُقاتلين والضبّاط. فجميع الأبحاث المختصّة بعلم النفس العسكري تعترف بأن المُقاتل يفقد جزءاً كبيراً من نسبة يقظته ووضوح أفكاره بعد 45 يوماً على وجوده تحت الضغط القتالي المتواصل.

وبناءً عليه، يستنتج غولان القول عن نتنياهو "إن ذَنْب السيّد الذي فَرّطَ بأمن إسرائيل هنا أكبر كثيراً من مسؤوليته المباشرة عمّا حدث في السابع من تشرين الأول/ أكتوبر". ومُتقاطعاً مع رؤية جنرالات إسرائيليين آخرين في الاحتياط، وأبرزهم "نبيّ الغضب" يتسحاق بريك، يضيف غولان أن نتنياهو "مسؤول عن إخفاق متواصل بسبب إطالة أمَد الحرب من دون جدوى، وهو ما يتسبّب في إيذاء أهليّة وجاهزيّة الجيش، ويمس بقدرة آلاف المُقاتلين والضبّاط الإسرائيليين على القتال". وبحسب رأي غولان، تتوفّر طريقة آمنة ومسؤولة لوقف الحرب: "التوصّل إلى صفقة تضْمن تحرير المختطفين. وهذه الصفقة مطروحة على الطاولة، ويمكن تحقيقها في فترة زمنية قصيرة نسبياً. أمّا خيار السيّد (نتنياهو) الذي فَرّطَ بأمن إسرائيل، والمتمثّل في تأجيل الصفقة والتسبّب بالتصعيد، فهو بمثابة شهادة لا تقبل التشكيك على مستوى الخطر الذي يمثّله على أمن إسرائيل، والمصلحة النظامية والقومية". ويختتم غولان بالقول: "هذا ما تحتاج إليه إسرائيل هنا، والآن: صفقة تبادُل، ووقف لإطلاق النار في الشمال والجنوب، وعودة اللاجئين (الإسرائيليين) إلى منازلهم، وإعادة تأهيل مدنية وعسكرية. إلى جانب أمر آخر صغير، يجب أن يتم الحسم داخل إسرائيل، سياسياً؛ هناك حاجة إلى إجراء انتخابات في أقرب فرصة، وانتخاب قيادة مسؤولة تتمتّع بثقة الشعب. لدينا شعب رائع، وقيادة فظيعة. لقد آن الأوان لاستبدال القيادة، وهذا قد يحدث غداً صباحاً، إذا كنّا عازمين بما يكفي على التخلّص من حُكم السيّد الذي يُفَرّط بأمن إسرائيل". والولايات المتحدة، التي تواصل دعم إسرائيل بكل المستويات، لا تبدو معنيّة بإجبار نتنياهو على وقف الحرب، لحسابات سياسية وانتخابية داخلية وخارجية، ما يُمَكِّن الأخير من مواصلة الاستخفاف بالرئيس بايدن الذي تميل شمسه للمغيب، واستغلاله.

من ناحية أخرى، وبالرغم من تردّد الجنرالين، بيني غانتس وغادي آيزنكوت، باتخاذ موقف صارم من نتنياهو، فقد كانت مواقف رئيس الوزراء السابق إيهودا باراك واضحة؛ فضلًا عن الانتقادات المستمرّة من قِبل رئيس الوزراء السابق إيهود أولمرت، وآخرها ما قاله في مقال في "هآرتس": إن الحرب على غزة انتهت فعليًا قبل 3 أشهر، ولا يوجد سبب للادّعاء باستمرارها، مؤكّدًا أنه لا يمكن استعادة الأسرى الإسرائيليين إلّا من خلال إنهاء الحرب، واصفًا من يتصوّر غير ذلك بأنه "واهم." أمّا الخلاف الآخر، والذي يرتبط أيضًا بالفشل الميداني، فهو خطّة ما بعد الحرب، حيث رفضت حكومة نتنياهو بإصرار أيّ دور للسلطة الفلسطينية بغزة، وأصرّت في المقابل على استخدام أشخاص غير مُرتبطين بها، وحاولت استمالة عائلات؛ ولكنها فشلت في المَسعَيَين. ورغم أنّها وافقت على أدوار لدول عربية، ولو مؤقتًا، فإنّ ذلك قُوبل بالرفض من مصر، والأردن، والإمارات، إذ ربَطت

هذه الدول أيّ دور لها بانسحاب قوّات الاحتلال من غزّة، وضمن إطار حلّ سياسي تكون السلطة الفلسطينية موجودةً فيه. ويحاول نتنياهو بهذا الموقف إرضاء شريكَيه اليمينيَين المتطرّفَين (بن غفير وسموتريتش)، الأمر الذي يُشعل الخلافَ مع بقيّة الشركاء الحكوميين، ومع الولايات المتحدة التي طالبت بسلطة فلسطينية مُحَسّنة، وفي إطار طرح حلّ الدولتين الذي رفضته حكومة الاحتلال أيضًا.

وفي هذا السياق، نستحضر رأي الكاتب في "يديعوت أحرونوت"، ناحوم برنياع، والذي يقول: "من الصعب أن نرى القوّة التي ستنشأ، أنها تحظى بتأييد جماهيري داخلي بدون أن تقاتلها "حماس". أما خيار السلطة الفلسطينية، فسيِّئ هو الآخر. واستطلاعات الرأي في الضفة تُشير للتأييد الكبير لمذبحة 7 أكتوبر/ تشرين الأول؛ ولا يزالون في جهاز الأمن يقولون إن هذين الخيارين أقل سوءًا من الوضع القائم الذي من غير الصواب أن يبقى أكثر من ذلك، إذ إنه يسحق إنجازات الجيش الإسرائيلي حتى الآن." ولكن مسألة اليوم التالي لحماس لا يمكن أن يُتاح لها التنفيذ على الأرض إلّا في حالة واحدة، وهي القضاء على حركة حماس. وهذا ثبت عمليًا أنه غير ممكن التحقيق؛ لأن "حماس" هي تنظيم متجذّر داخل الأرض الفلسطينية وخارجها، ولأنّها استطاعت حتى الآن إفشال مخطّطات الاحتلال، من خلال صمود كوادرها العسكريّة، وانبثاث الكوادر المدنية التي تمنع أي قوّة مهما كانت أن تحلّ محلّها. وفي المقابل، فإن "حماس" أعلنت مرارًا أنها ستقبل بالشراكة الوطنية، بل وربما تتخلّى عن الحكم المباشر لصالح حكومة كفاءات، شريطة أن تكون نتيجة توافق وطني، وليس نتيجة ضغوط الاحتلال.

وفي السياق، نقلت صحيفة "نيويورك تايمز" عن مسؤولين أميركيين وإسرائيليين، أنّه "بعد شهور الحرب العشرة، أصبح بقاء السنوار على قيْد الحياة رمزًا لفشل الحرب الإسرائيلية، التي دمّرت جزءًا كبيرًا من غزة، لكنها تركت قيادة "حماس" العليا سليمة، وفشلت في تحرير معظم الرهائن!"

2 – تخلخل الغطاء الغربي للكيان

إنّ أخطر تداعيات الحرب الدائرة، يكمن في انقلاب التأييد الغربي للحرب التي شنّها الكيان الإسرائيلي بعد 7 أكتوبر/ تشرين الأوّل إلى النقيض، وذلك بسبب حجم الإجرام الصهيوني الفاشي، وتركيز الاحتلال على المدنيين بالقتل والتجويع، لدرجة أنّ معظم الدول الحليفة لأميركا أصبحت تطالب بوقف النار، مثل: بريطانيا، وفرنسا، وكندا. كما اضطرّت الولايات المتحدة في 20 فبراير/ شباط الماضي، لاستخدام الفيتو لعدم تمرير مشروع قرار

جزائري بمجلس الأمن يدعو لوقف النار الفوري، وذلك رغم موافقة 13 عضوًا عليه، وامتناع بريطانيا فقط عن التصويت.

لكنّ واشنطن امتنعت بعد نحو شهر من ذلك عن استخدام الفيتو، لتمرير قرار يدعو لوقف إطلاق النار (غير دائم)، وذلك بهدف مُمارسة "ضغط ناعم" على رئيس الحكومة الإسرائيلية، بنيامين نتنياهو، للتعامل إيجابيًا مع مساعيها مع الوسطاء لترتيب وقف لإطلاق النار. ورغم أن الولايات المتحدة قدّمت دعمًا عسكريًا وسياسيًا شاملًا للعدوان الصهيوني، فإن طريقة إدارة نتنياهو وحكومته للمعركة، أضَرّت بموقف بايدن الانتخابي، بعد أن زكّمت الممارسات النازية للاحتلال أنوف العالم، ما أدّى لمُطالبة الجناح اليساري في الحزب الديمقراطي للرئيس جو بايدن بتقييد الدعم العسكري للاحتلال، وذلك لإجباره على الالتزام بالقانون الدولي في التعامل مع المدنيين. كما انخفضت نسبة المسلمين المؤيّدين في بعض الولايات المتأرجحة للرئيس بايدن، بما شكّل عاملاً إضافياً مساعداً على تنحّيه وانكفائه عن المنافسة لصالح نائبته كاميلا هاريس في الانتخابات الرئاسية في نوفمبر/ تشرين الثاني من هذا العام. وقد وصلت أجهزة الاستخبارات الأميركية إلى قناعة بفشل نتنياهو في مهمّة القضاء على "حماس" بغزة، ضمن مهل زمنية مَدَّدتها الإدارة الأميركية مرارًا، بما يسمح لإحلال وقف إطلاق نار مُستدام، يهيّئ الأجواء لعملية التطبيع في المنطقة؛ وهو الملفّ الذي كان بايدن يريد أن يحمله كرافعة له في الانتخابات، لكن يرفضه نتنياهو.

وفيما كانت هذه الخلافات لا تزال قائمة، فإن نتنياهو فشل في تحقيق أهدافه، وإن كان مستمرًا في التصعيد في غزة، وهو ما يؤجّل إمكانية الوصول لصفقة أسرى إلى حين انتهاء مهمّة جيش الاحتلال، التي يبدو أنها لن تنتهي، على مساحة القطاع، وخاصة في رفح وجباليا والزيتون وخان يونس وسواها.

والخلاصة أن "حماس" ما زالت في موقع قوي ميدانيًا، وتستطيع التمسك بمطالبها بوقف النار والانسحاب والإغاثة والإعمار؛ فيما الاحتلال لم يحصل على النصر الذي يتمنّاه، ويستطيع من خلاله ممارسة ضغوط على المقاومة لدفعها لتقديم تنازلات. في حين أنّه قد يؤدّي تنفيذ مجازر جديدة بحقّ الشعب الفلسطيني إلى تداعيات سلبية على الكيان، بما في ذلك تفعيل أوامر من المحكمة الجنائية الدولية باعتقال مسؤولين من الكيان، على رأسهم نتنياهو؛ وكذلك تفعيل طلب وقف اطلاق النار، والإبادة الجماعية من قِبل محكمة العدل الدولية، وتسعير ما يمكن تسميته بانتفاضة الجامعات الأميركيّة. بل إن الأمر قد يعقّد العلاقة مع الإدارة الأميركية، لأنه يُثير مخاوف اندلاع الحرب الإقليمية، بتصعيد المواجهات في الشمال، ومع الحوثيين، والذي يتعارض مع

السياسة الأميركية التي تريد الهدوء في المنطقة للتفرّغ للصين وروسيا، واستكمال مشاريع التطبيع العربي–الإسرائيلي.

3 – تسويق النصر:

بعد نحو 11 شهراً من الحملات العسكرية الإجرامية والساديّة المتوحّشة التي مارستها وتمارسها الحكومة الفاشية الإسرائيلية بزعامة بنيامين نتنياهو، يستمر هذا الأخير في بيع "الوهم" للإسرائيليين على أنه "انتصار ." وبينما تشير استطلاعات الرأي (كانون الأول/ ديسمبر 2023) إلى أن 15% فقط من الجمهور الإسرائيلي يعتقدون أن نتنياهو هو رئيس وزراء مرغوب فيه، فإنه يستمر في التسويق لنفسه بأنه "لا بديل منه". فما سرّ صموده في مواجهة خسائره وخصومه والانتقادات الدولية المتعاظمة؟ وما الذي يمكن أن يقدّمه هو وليس سواه للإسرائيليين؟ اليوم، وفي إثر هذا المسار المأساوي بعد السابع من أكتوبر العام الماضي، بات من الصعب قراءة صحيفة أو مشاهدة محطّة إخبارية أو إذاعية دون سماع نتنياهو وهو يردّد شعاره المتكرّر عن "مواصلة الحرب حتى الانتصار الكامل". فعلامَ يتّكئ في معاندته وإصراره على الذهاب في هذه الحرب إلى ما لا نهاية، رغم الأثمان الباهظة التي يتكبّدها "المجتمع" الإسرائيلي على كلّ الصعد، ورغم الانتقادات الدولية المتصاعدة، والموقف الأميركي المتململ، والحراك الشعبي العالمي ضدّه؟

الواقع أن نتنياهو تُحرّكه جُملة من الدوافع والاعتبارات في سلوكه المتغطرس هذا، أوّلها ذاتي مرتبطٌ بنرجسيّته الذاتية وبمصيره الشخصي قبل السياسي؛ فالرجل مُلاحقٌ بتُهَم الفساد والرشوة قبل السابع من أكتوبر. وقد شهدت "إسرائيل" منذ تولّيه رئاسة الوزراء، في الحكومة الحالية، احتجاجات جارفة على التعديلات القضائية التي عمل على فرضها بالإكراه. وتلاحقه كذلك، مع أركان حكومته، اتّهامات الفشل المذهل الذي حدَث في السابع من أكتوبر 2023، والذي لم تتوقف فصوله حتى اليوم؛ وهو يوقِن أن وقف هذه الحرب يعني جرّه إلى المساءلة والمحاسبة على كلّ هذه الملفّات والفضائح؛ وربما تنتظره غرفة معزولة معتمة في سجن مسعياهو الإسرائيلي في مدينة الرملة. فكيف له أن يوقف الحرب وهذا المصير يتربّص به! أما العامل الآخر الذاتي كذلك، فهو مرتبطٌ بعقدة الغرور والاستعلاء وشعور العظمة الذي يعيشه الرجل بعدما مضى على وجوده في كرسي رئاسة الوزراء قرابة 17 عاماً؛ حتى إن صحيفة هآرتس كتبت قبل أيام "أن جيلاً كاملاً من الشباب الإسرائيلي لم يعرف سوى بنيامين نتنياهو رئيساً للوزراء ."

ببساطة، يرى نتنياهو أنّ له من اسمه نصيباً، فهو "عطاء الله"، كما يشير معنى الاسم بالعبرية. وهو الحاكم الأوحد في الكون بأسره، وكلّ ما سواه مؤامرة. وقد تجذّرت صورة "بيبي الملك" في خطاب أنصاره من اليمين الإسرائيلي، وتعاظم في السنوات الأخيرة توصيفه بـ"ملك الملوك." وما دام "ملكاً"، فيمكنه أن يفعل ما يشاء، ولا يمكن المساس به أو إجراء نقدٍ أو مناقشة عامة بشأن سلوكه. وبالنسبة إلى أولئك الذين يؤمنون به ويدعمونه، فحبّ "الملك" أهم بكثير لديهم من حبّ "المملكة"، حتى لو قاد إلى إشعال النار فيها، كما يفعل نتنياهو اليوم؛ وإن كان هذا ليس كافياً لمنع وقف الحرب. فوجود ائتلاف يميني صهيوني ديني يتّكئ عليه في استمرار استقرار ائتلافه السياسي، ويتقاطع مع رغبته في استمرار الحرب، بل ويدفعه إليها، كفيلٌ بمدّه بمزيد من أسباب إدارة الظهر والمعاندة بوجه الجميع. ولا شك بأن نتنياهو يُطْرب لحديث بن غفير المتكرّر وتهديده "بأن وقف الحرب يعني تفيكك الحكومة"، وإن بدا أن ظاهره فيه التحدّي؛ إلّا أن باطنه فيه ما يعزّز رغبته في أن لا تتوقف هذه الحرب. وثمّة أمر آخر يُتيح لنتنياهو هامش المناورة والهروب الدائم إلى الأمام؛ فرغم أن "إسرائيل" تتباهى بكونها "نظاماً ليبرالياً ديمقراطياً" شبيهاً بالأنظمة الأوروبية، فإنَّها ليست واحدة من تلك "الدول" حين يتعلّق الأمر بثقافة تحمّل المسؤولية. وعلى الرغم من الأخطاء والإخفاقات المتكرّرة التي ارتكبها قادة ومسؤولون إسرائيليون، والتي شُكّلت لها لجان تحقيق دانت الكثير منهم، فإنَّ ثقافة تحمّل المسؤولية لم تتجذّر في "إسرائيل"، إذ يتجنّب المسؤولون الإسرائيليون الاعتراف بمسؤوليتهم الشخصية، ويسعون إلى التهرّب وتحميل أطرافٍ أخرى المسؤولية، ودحرجتها إلى "الغير"، لإعفاء المستوى السياسي من مسؤوليته الشاملة، كما تبدّى من سلوك نتنياهو وأعضاء ائتلافه في انقضاضهم على الجيش والقوى الأمنية ومحاولتهم تحميلها مسؤولية الفشل في السابع من أكتوبر وفي الميدان .

وبهذا المعنى، فإن نمَط سلوك نتنياهو ووزراء حكومته في إثر الإخفاق نتيجة "طوفان الأقصى"، وما تلاه من إخفاقات متتالية، ليس جديداً ولا مستغرباً. ولعلّ أحد أسباب غياب تحمّل المسؤولية في الحياة السياسية الإسرائيلية مرتبط بمفهوم "حوكمة" الحياة العامة في "إسرائيل"؛ بمعنى أن رئيس الوزراء أو الوزير لا ينبغي أن يتحمّل مسؤولية التقصير ما لم تُقرّر لجنة تحقيق أو محكمة أنه "مُذنب"، ويجب عليه القيام بذلك . ويبدو أن الجمهور في "إسرائيل" يُدرك صعوبة امتثال المسؤولين المُنتَخبين لهذه الثقافة، وتحديداً نتنياهو، في ضوء حقيقة أنه استمرّ طيلة السنوات الماضية في منصبه، على الرغم من تقديم لوائح اتهام ضدّه. وثمّة سرّ آخر لصمود هذا الرجل و"معاندته" التي يُبديها، وهو مقدرته المذهلة على ترجمة عقيدة "إسرائيل الضحيّة" أو "التهديد الوجودي" إلى

سياسة مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بمفهوم الأمن. فنتنياهو هو الشخص الذي يُتقِن التلاعب للحفاظ على الوضع الراهن وحماية شعب "إسرائيل" من محيط التهديدات. فالشعب اليهودي، وفق فلسفته، "محاطٌ بمخاطر وجودية جمّة قد تقوده إلى معسكر أوشفيتز مرّةً أخرى"؛ وهو ما عكَسه خطابه الأخير قبل أيام، حين حذّر من أن المذبحة التالية بحق الإسرائيليين ستكون مسألة وقت إذا توقّفت الحرب. وإذا توقّفت الحرب، ستقوم دولة "الإرهاب الفلسطينية"، على حدّ قوله. وإذا توقّفت الحرب، "فستضيع تضحيات جنودنا سُدى." وبالتالي، فإنّ نتنياهو لا يصنع "صورته" و"رأسماله السياسي" من مقدرته على حلّ المشكلات، بل من تحويلها إلى "تهديدات وجودية" للكيان؛ وإن لم توجد، فإنّ عليه السعي باستمرار للبحث عنها. ومُقارنته الفلسطينيين "بالنازيين" و"داعش" ليست من قبيل المصادفة؛ فهذه هي القوى التي تمثّل الشرّ المطلق لمعظم الناس في العالم، ولا يوجد شيء للمناقشة والجدل حولها. وهي تشكّل تهديداً، ليس "لإسرائيل" فحسب، بل للثقافة الغربية الحديثة أيضاً، مُتناسياً أنه هو الذي دعَم "داعش" في سوريا وعالج جَرحاها في مستشفياته. والحلّ الوحيد الممكن لمنع انفضاض الناس عنه وسحب البساط من تحت أقدام خصومه هو "التضخيم" وتكثيف التهديد والترويع. وبالطبع، فإن نتنياهو هو الشخص "المناسب" للتعامل مع مثل هذه التهديدات، في مجتمع أصبح "التهديد الوجودي" حجَر الزاوية في وعيه ولا وعيه. من الصعب الاعتقاد أنَّ الجمهور الإسرائيلي سيشهد تراجعاً لدى نتنياهو فيما يخص "سرديّته" حول الحرب، في ظل سلسلة الإخفاقات المتتالية التي يُمنى بها هو وحكومته. ومن المُستبعد أن يقوم هو، أو أحدٌ من حكومته اليمينية الفاشية، بالدعوة إلى وقف الحرب. والظاهر أن المجتمع الإسرائيلي، وتحت وقْع الأثمان الباهظة والخسائر الفادحة التي تُكبّده إياها المقاومة في غزة وفي المحور المساند لها، بحاجة إلى "ربيع إسرائيلي" يقول فيه كلمته بطريقة لا لبس فيها، وعبر احتجاجات ميدانية جارفة، بأن نتنياهو وحكومته الفاشلة يجب أن يرحلوا إلى غير رجعة.

4 – عجْز نتنياهو:

يواجه رئيس حكومة العدو، بنيامين نتنياهو، المزيد من المصاعب والتحدّيات في حربه ضدّ المقاومة عموماً، وضدّ "حماس" خصوصاً، والتي شكّلت الحرب معها الأطول في تاريخ الكيان. ولا يبدو في الأفق حتى الآن بأن يكون نتنياهو قادراً على تحقيق "النصر الكامل" المزعوم، أو استعادة الأسرى، أو وقف الحرب الدائرة في الشمال مع حزب الله. ويُضاف إلى كلّ هذه المتاعب التي تواجهها الحكومة الفاشية، التهديدات التي تصدر من وزراء

اليمين المتطرف بالاستقالة، في حال إعلان نتنياهو القبول بوقف العمليات العسكرية ضدّ "حماس"، وخصوصاً في مدينة رفح، والتي بدأت القوّات الاسرائيلية بغزوها في السادس من أيار الماضي، تحت عنوان «ضرورة القضاء على ما تبقّى من أفواج حماس العسكرية»، والبحث عن قادتها، وعلى رأسهم المجاهد البطل يحيى السنوار. في حين بدأت الحرب تتّخذ منحى جديداً، سواء لجهة إطالة أمَدها، أو لجهة تكبيد الجيش الإسرائيلي فيها المزيد من الخسائر البشرية والمادية. ويؤشّر المسار الجديد لعمليات "حماس" العسكرية البطولية في أكثر من محور في القطاع، بأنه لن يكون من السهل على نتنياهو إقناع حكومته أو حلفائه بأن «النصر الكبير» المنشود قد تحقّق، وفق ما وعَد به نتنياهو منذ بداية الحرب؛ بالإضافة إلى الأهداف الأخرى التي حدّدها، وأهمّها: استعادة الأسرى، وتدمير قدرات "حماس" العسكرية وأجهزتها الإدارية لحكم غزة؛ مع التأكيد على أن غزة لن تكون أبداً مصدر تهديد لإسرائيل في المستقبل. ويبدو بوضوح أنه لم ولن يتحقق أيٌّ من هذه الأهداف التي سعى نتنياهو إليها منذ بداية عملياته العسكرية في غزة قبل أحد عشر شهراً. وقد تأسّف نتنياهو قائلاً إنه "كلّما زدنا الضغط العسكري على حركة حماس زاد الضغط علينا داخل إسرائيل"، لافتًا إلى أن الهدف الأوّل لتل أبيب هو القضاء على الحركة، ثم إجراء التحقيق في أحداث 7 أكتوبر. وأكّد أن الضغط العسكري المتواصل على "حماس" سيُجبرها على التنازل في المفاوضات ويحقّق إطلاق سراح المُحتجزين، مشيرًا إلى أنه سيتم الضغط على المستويين السياسي والعسكري لتحقيق أهداف الحرب هذه. ولفَت إلى أنه لن يُجيب على كلّ الافتراءات التي وجّهتها المعارضة له. وتابع: "تذرّعوا بأن مواصلة الحرب والضغط العسكري سيؤثّران على العلاقات مع أمريكا؛ لكنّي أصرَرت على موقفي. ولو اعتمدنا على مواقف وتصريحات نوّاب المعارضة لما حقّقنا أيًا من أهداف الحرب".

من ناحية أخرى، لا يمكن، بطبيعة الحال، إنكار حقيقة حجم الخسائر العسكرية الكبيرة التي أصيبت بها قوات "حماس"، حيث يقدّر بعض الخبراء بأنها بلغت ما يقارب 50 في المائة من عديد المقاتلين بين شهيد وأسير؛ هذا بالإضافة إلى اكتشاف القوّات الإسرائيلية لعدد كبير من الأنفاق وغرف العمليات الخاصة وتدميرها. كما أنّ "إسرائيل" باتت تسيطر على حدود قطاع غزة مع مصر، وبما يُمكّنها من قطع جميع أنفاق وطرق تهريب الأسلحة إلى داخل القطاع. لكن كلّ هذه الخسائر التي مُنِيَت بها "حماس" لن تسمح للحكومة الإسرائيلية بإعلان «الانتصار الكبير» المزعوم، الذي وعَد نتنياهو الإسرائيليين والعالَم بتحقيقه. كما أنه لا يمكن إنكار خيْبة الأمل

الكبيرة للقيادات الإسرائيلية، السياسية والعسكرية، لعجزها عن أسر أو قتل المجاهدين الفلسطينيين الكبار، مثل يحيى السنوار ومحمد الضيف، وبعض القياديين الآخرين في "حماس".

وسواء طالَت الحرب في مرحلتها الثالثة أو قصرت، فإن النهاية لن تكون لصالح "إسرائيل"، حيث من المنتظر أن تعود قوّات "حماس" لتؤكّد سيطرتها على كامل القطاع، مع استعادة سيطرتها الإدارية؛ وهذا ما يؤشّر إليه فشل "إسرائيل" في إيجاد مؤسسات بديلة لتعبئة الفراغ الذي سيتركه انسحاب القوّات الإسرائيلية من القطاع. وتبقى المعضلة الكبرى التي ستُواجهها "إسرائيل" من خلال فشل حكومة نتنياهو في التوصل لحلّ أزمة الأسرى الموجودين لدى "حماس". وتُدرك قيادة "حماس" مركزية وأهمية الاحتفاظ بهذا العنصر الحاسم في منع نتنياهو من إعلان انتصاره الموهوم الذي وعَد بتحقيقه من خلال تصعيد وديمومة الحرب.

وبالرغم من الجهود الحثيثة التي تبذلها الولايات المتحدة وكلٌ من مصر وقَطَر من أجل إقناع "حماس" بقبول خطّة بايدن لتحقيق هدنة مقابل تحرير عدد من الرهائن، فإنه لا يبدو بأن "حماس" ستتخلّى عن هذه الورقة الرابحة، والتي يمكن أن تطيح في نهاية المطاف بحكومة نتنياهو، وأن تؤمّن انسحاباً سريعاً للقوّات الإسرائيلية من كامل قطاع غزة. بالإضافة إلى ذلك، فإن "حماس" وقياداتها تجد أنّ إمساكها وتشدُّدها بمسألة الأسرى باتا يشكّلان بوليصة التأمين الوحيدة لمستقبلها وسلامة قياداتها السياسية والعسكرية، ولإعلانها الانتصار الحقيقي على "إسرائيل"، الذي من شأنه أن يبرّر الخسائر الدراماتيكية بالأرواح، وبكلّ البنى العمرانية التي دمّرتها الحرب في القطاع. وفي الوقت نفسه، تُدرك "إسرائيل" بأنه لن يكون من السهل ضبط العمليات العسكرية مع حزب الله في الشمال إلّا في حال وقف الحرب في القطاع؛ فالحزب لا يخشى تهديدات "إسرائيل"؛ وهو مستمر في عملياته المتْقنة إلى حين خضوع نتنياهو لمطالب حركة حماس المحقّة.

5 – اغتيالات وحكومة مُنفصلة عن الواقع:

تواصل "إسرائيل" حربها الإجرامية على قطاع غزة، مُتجاهلة قراراً من مجلس الأمن يطالبها بوقف القتال فوراً، وأوامر من محكمة العدل الدولية تطالبها بوقف هجومها الوحشي على رفح، واتخاذ تدابير فورية لمنع وقوع أعمال "إبادة جماعية"، و"تحسين الوضع الإنساني" بغزة. وفي الوقت نفسه، تُجْمِع الأجهزة الأمنية والعسكرية الإسرائيلية على أن ردّ محور المقاومة على الاغتيالات في بيروت وطهران «سيأتي في المستقبل القريب»، وفق القناة 13 العبرية. وأمام هذا الواقع، رأى مدير العمليات السابق في وزارة "الدفاع" الإسرائيلية، الجنرال المتقاعد يسرائيل

زيف، أن "جميع سكّان إسرائيل يعيشون حالة من الخوف الشديد (...). وقد تخَلّينا للمرّة الأولى في تاريخنا عن الاستيطان في الجليل»، مُضيفاً أنه «باستثناء إطلاق شعارات لا معنى لها، فإن الحكومة تختبئ وراء نشاطات الجيش الإسرائيلي، ولا تقود أي توجيهات؛ وهي مُنفصلة تماماً عن الواقع، وكذلك عن الكابوس الذي يعيشه الناس في الشمال والجنوب». وبعكس تصريحات رئيس وزراء العدو، نتنياهو، المتكرّرة عن الإصرار على الانتصار الساحق والواضح في الحرب، فقد أمل وزير "الدفاع" الإسرائيلي، يوآف غالانت، ألّا توسّع إيران وحزب الله نطاق الحرب. وكتب أوريئيل لين في صحيفة «معاريف» أنه «ليست لإسرائيل مصلحة ولا قدرة على توسيع الصراع مع الحوثيين ومع حزب الله والحرس الثوري إلى حرب مباشرة مع إيران»، لافتاً إلى أن "هذه مُقامرة كبيرة وخطِرة جداً. وعلينا مع مرور الوقت تهدئة المواجهات المباشرة مع إيران، والسعي إلى بناء علاقات ودّية مع تركيا". ومع تزايد «التقديرات» الاستخباراتية الإسرائيلية حول قرب ردّ إيران وحزب الله، برَزت دعوات إلى تشكيل «ائتلاف دفاعي» لحماية إسرائيل العاجزة عن مواجهة التحدّيات بمفردها. وفي هذا الصدد، نشَرت صحيفة «يديعوت أحرونوت» مقالاً مشتركاً ليوئيل غوجنسكي وتشاك فراييخ، تحدّثا فيه عن أن الاستعدادات لردّ إيران أو أحد حلفائها، تُظهر مرّة أخرى الحاجة الإسرائيلية إلى ائتلاف للدفاع عنها، رغم أن العقيدة الأمنية الإسرائيلية التقليدية شَدّدت على الحاجة إلى العمل بصورة ذاتيّة مستقلّة. واعتبرا أن «طبيعة التهديدات والحروب تغيّرت؛ وتواجه إسرائيل الآن صعوبة في مواجهة التهديدات المتعدّدة الجبهات، التي تقودها إيران بصورة منفردة. وبناءً على ذلك، يتعيّن على "إسرائيل" استبدال الأسطوانة، وإدراك المصالح الحسّاسة لدول الائتلاف، إذا كانت تنوي أن تستغل بصورة جيّدة ميزات العمل عن طريقه. وذكّر الكاتبان بردّ إيران في نيسان الماضي على استهداف قنصليّتها في دمشق، ما يؤكّد «أهمية التحرّك عبر ائتلاف إقليمي، بل أيضاً ضرورته»، وأشارا إلى أن التصدّي للهجوم «كان إلى حدٍ بعيدٍ ثمرة التخطيط والتنفيذ وقيادة القيادة الوسطى الأميركية؛ ومن دونه، لم يكن في إمكان الأميركيين تجنيد دول عربية قريبة وبعيدة من أجل عمليات الكشف والإنذار والاعتراض». ورأى الكاتبان أن «لا مجال بعد اليوم ألّا تأخذ في حسابك الأغيار؛ وفي إمكان إسرائيل تعزيز التعاون الإقليمي وتحويل الائتلاف بقَدر الإمكان إلى ائتلاف دائم؛ ومن المهم أن تساعد خطوات الائتلاف العمليات الإسرائيلية الهجومية، هذا فقط إذا فهمت إسرائيل جيّداً حساسيّة جيرانها، ومنَحتهم، ونفسها معهم بصورة خاصة، أفقاً سياسياً». وخلص الكاتبان إلى التأكيد على أن «القناة الفلسطينية هي مفتاح التغييرات الإقليمية، وهي التي يمكن أن تمنح الدول العربية

"البراغماتية"، وخصوصاً الخليجية، حريّة تحرّك أكبر إزاء "إسرائيل"، وتحويل الائتلاف الأمني إلى منظومة سياسية واقتصادية تغيّر الواقع».

6 – المقاومة تنتصر:

تختلف مقاييس الربح والخسارة في الحرب غير المتماثلة، التي تخوضها المقاومة ضدّ جيش الاحتلال الإسرائيلي، عن مثيلاتها في الحروب التقليدية بين الدول والجيوش النظامية. فبينما تشكّل خسائر المقاومة أضعاف خسائر المحتل، لا يقوى الأخير على تحمّل كلفة مواصلة الحرب. ولمّا كانت نتائج الحرب النهائية على الأرض هي التي تحدّد ملامح النصر والهزيمة، تغدو المقاومة مُنتصرة حينما تحتفظ بقدراتها، وإرادتها القتالية، وقياداتها، وهياكلها التنظيمية؛ فضلاً عن إجبارها جيش الاحتلال على الانسحاب من المناطق التي وطَأها، مُعلنة فشله في فرض واقع جيوسياسي جديد على الأرض. إضافة إلى إصرارها على إجراء صفقة تبادل للأسرى وفقاً لشروطها، بما يمكّنها من تحرير قياداتها الفاعلة، لإعطاء دفعة قوية وخبرات نضالية وازنة لسائر فصائل المقاومة. أما الاحتلال، فينتصر حينما ينجح في كسر إرادة المقاومة وجمهورها، ونزع سلاحها، وتفكيك منظومتها العسكرية وهياكلها التنظيمية، وتصفية قادتها أو توقيفهم، أو تهجيرهم إلى الخارج؛ أو إذا استطاع احتلال القطاع مجدّداً، وإعادة غزة إلى وضع ما قبل العام 2005؛ أو إذا تمكّن من تحرير أسراه بالقوّة، بدون الاضطرار إلى إبرام صفقة تبادل مع المقاومة، حتى وإنْ قتَل بعضهم. وفي محاولة يائسة لادّعاء النصر الزائف، وصَف نتنياهو إنجازات جيش الاحتلال بغير المسبوقة، مدّعياً تصفيته 20 ألفاً من مُقاتلي "حماس"، يشكّلون أكثر من نصف قوّتها الضاربة، وشلّ قدرة 18 كتيبة من أصل 24 على العمل. كما سعى، عبثاً، إلى فرض شروط المُنتصرين من خلال خطّته الخبيثة المدعومة عالمياً لليوم التالي للعدوان. غير أن واشنطن نصَحت نتنياهو بالاستفادة من دروسها المستخلَصة من حروبها في أفغانستان والعراق، بحيث ينفّذ عمليات عسكرية نوعية دقيقة بدلاً من القصف الانتقامي العشوائي واسع النطاق، الذي يستهدف الفلسطينيين الأبرياء وأعيانهم المدنية؛ وإلّا وقَع في فخ الزهو بنصر تكتيكي، مع تلقّي هزيمة استراتيجية، تتأتّى من فقدان "إسرائيل" التعاطف والدعم الدوليين.

في المقابل، أمعَن جيش الاحتلال في قتل وإصابة عشرات الآلاف من المدنيين وتدمير الأبنية السكنية، وحرق الأخضر واليابس، وارتكاب جرائم حرب، وجرائم إبادة جماعية وجرائم ضدّ الإنسانية، شهدها ووثّقها العالم أجمع. لكنه مع ذلك، لم يُدرك النصر المنشود. وقد أظهَر استطلاع للرأي، أجراه «معهد الديمقراطية الإسرائيلي»،

تشكيك غالبية الإسرائيليين في إمكانية تحقيق «النصر الكامل» الموهوم على المقاومة عموماً، وعلى "حماس" خصوصاً. كما استبعد مسؤولون عسكريون واستخباراتيون إسرائيليون سابقون، بلوغ نتنياهو نصره «المطلق» على المقاومة، مؤكّدين تواضع الإنجازات التي حقّقها جيش الاحتلال، قياساً إلى كلفتها الباهظة. ومن ثمّ، ناشدوا نتنياهو إتمام صفقة لتبادل الأسرى، تجنّباً لمقتلهم. وليس أدل على إخفاق نتنياهو، من عجزه عن فرض خطّته لليوم التالي في غزة، والتي تستهدف تقويض المقاومة الفلسطينية، وإجهاض حلّ الدولتين.

7 – أهداف غير واقعية للحرب:

صرّح الرئيس السابق للاستخبارات العسكرية الإسرائيلية (أمان)، أهارون زئيفي فركش، بأنّ الأهداف التي حدّدتها إسرائيل للحرب في قطاع غزة غير واقعية؛ ورأى أن الحرب لن تنتهي إلّا بإعادة المُحتجزين. وقال فركش في تصريحات لصحيفة يديعوت أحرونوت: "لقد بدأنا تدمير "حماس"؛ ولكن، في هذه الأثناء، هناك تحدٍ حاسم. فمن المستحيل إنهاء الحرب من دون عودة المختطفين." فيما حذّر رئيس حزب "يسرائيل بيتنو"، أفيجدور ليبرمان، في حديثه لصحيفة "معاريف"، بأن: "قدرات نتنياهو الإدارية صفر؛ فهو يقود بلاده إلى الدمار، ولا يعرف إدارة أي شيء".

وأوضح ليبرمان أن "إسرائيل تمر بخطر وجودي وتهديدات وجودية متعدّدة. كما أنها تمر بأخطر أزمة منذ إنشائها فى العام 1948"، معلّقاً على الوضع الإسرائيلي، بالقول: "أزمة متعدّدة الأبعاد، سياسية وأمنية واقتصادية". وكانت حكومة نتنياهو قد حدّدت أهداف حربها على غزة بالقضاء على حركة المقاومة الإسلامية (حماس)، وإعادة الأسرى الإسرائيليين؛ لكنّها لم تتمكّن من تحقيق أي من أهدافها؛ فضلاً عن تكبّدها خسائر كبيرة في القوّات والعتاد. وفي وقتٍ سابق، قالت هيئة البث الإسرائيلية إن الحكومة تبحث في تسوية تقترح ترحيل قادة "حماس" إلى الخارج بهدف إنهاء الحرب، وهو ما اعتُبر خفضاً لطموحات نتنياهو المعلنة. وكرّرت الحكومة الإسرائيلية مراراً أنها تسعى لتصفية قادة "حماس"، وفي مقدّمتهم رئيس الحركة في غزة، المجاهد يحيى السنوار، وقائد جناحها العسكري، المجاهد محمد الضيف. كما خصّصت مكافآت مالية لمن يُدلي بمعلومات عن مكانهم. لقد اتّفق العديد من الخبراء والمحلّلين على أن تأكيد رئيس وزراء الاحتلال الإسرائيلي، بنيامين نتنياهو، على استمرار الحرب بقطاع غزة حتى تحقيق أهدافها المعلنة، يأتي لمواجهة تنامي التيّار الرافض له، والمُطالِب باستقالته، في ظلّ فشله في إدارة الحرب وتحقيق أي إنجاز حقيقي على الأرض. وأمام ذوي بعض المُحتجزين

في غزة، ومع تعالي أصواتهم المُستهجنة في أثناء إلقائه كلمته في الكنيست، قال نتنياهو إن "إسرائيل" لن تتمكّن من إطلاق سراح الرهائن من دون ضغط عسكري، متعهّداً بمواصلة الحرب وتعميق نطاقها حتى تحقيق أهدافها، ومؤكّداً حاجته إلى مزيد من الوقت لتحقيق انتصار حاسم، وفق قوله. وفي ظلّ عدم تحقق أيٍ من الأهداف التي أعلنها نتنياهو للحرب في قطاع غزة بعد نحو 11 شهراً من بدئها، يجد نتنياهو والجيش أنفسهما في خطر حقيقي مع انحسار التأييد الشعبي للحرب، والتحرّك المتزايد لقيادات المعارضة ضدّهما. وكان زعيم المعارضة، يائير لبيد، قد انتقد أداء الحكومة في ملف المُحتجزين، وقال إنها لا تفعل ما يكفي حتى يعودوا من غزة؛ ودعا إلى وضع إعادة المُحتجزين كأولوية، وأكّد دعمه موقف عائلاتهم، وطالب الحكومة بالعمل الفوري من أجل تحريرهم ضمن صفقة تبادل.

في الوقت الذي بدا فيه واضحاً أن تحرّك لبيد ضدّ نتنياهو قد أتى مُتناغماً مع تزايد سخط الشارع ضدّ الأخير، إذ يلعب لبيد على وتَر فشل نتنياهو في إدارة الحرب، وعدم تحقيقه أهدافها المُتعارضة، كما أصبح يراها كثير من المراقبين في الداخل. ولفَت إلى أن صفقات التسوية تتم في ضوء النتائج على الأرض، حيث يفرض المُنتصر شروطه، ويستجيب المهزوم رغماً عنه؛ وهو أحد أسباب إصرار نتنياهو على مواصلة الحرب، إذ إن توقّفها في هذه المرحلة بمثابة انتحار له ولكيانه، وبما يدفعه للخروج سريعاً من المشهد، وربما كذلك اليمين الإسرائيلي معه. لكن الأمر، على أرض الواقع لا يزال معقّداً؛ ففي ظل صمود حركة المقاومة الإسلامية (حماس) والمقاومة الإسلامية في لبنان، يُتوقّع أن تعمل الإدارة الأميركية على خطّة لإخراج نتنياهو من المشهد، والمجيء بحكومة جديدة تكون غير مُلزَمة بوعوده الخيالية السابقة. لكن هذه الخطّة تتضمّن استمرار الضغط على القطاع، في محاولة لإجبار "حماس" ومحور المقاومة على الرضوخ.

وفي إطار زيادة حدّة مَطالب رحيل نتنياهو، فقد اتّسع استخدام مُفردات في الإعلام والشارع الإسرائيلي ذات دلالة، ومنها "وحْل غزة"، و"لا نريد أن تتحوّل غزة لفيتنام أخرى"، و"إعادة صياغة أهداف الحرب"، ممّا اضطر رئيس كيان الاحتلال، إسحاق هرتسوغ، للحديث عن ضرورة نبْذ الخلاف، والتأكيد على سرديّة قدسيّة المعركة؛ علماً أنه كلّما شعر نتنياهو بضغوط داخل المجتمع الإسرائيلي رفَع وتيرة التهديد والهروب للأمام، عبر تأكيد عدم إمكانية توقّف الحرب حتى تحقيق أهدافها. وما يُطمئن نتنياهو في هذا السياق أنه لم يسبق أن استجاب رئيس وزراء لمطلب الاستقالة إلّا بعد تشكيل لجان تحقيق وحوكمة القضية التي يواجه فيها، وتحت ضغط حراك واسع لتيّار جارف لم يكتمل بعد؛ وهو الأمر الذي يُتيح له مرونة في التعامل مع المشهد حتى الآن. وبالتالي،

فإن الإنجازات التي تُحقّقها المقاومة، وقدرتها على أن تكبّد الاحتلال خسائر بشرية ومعنوية ومادية كبيرة، تأتي ضمن عوامل الضغط على الشارع الإسرائيلي؛ وهو ما دفَع نتنياهو للخروج أكثر من مرّة لتأكيد استمرار الحرب ومضيّه فيها حتى النهاية. كما أن قدرة المقاومة، شمالاً وجنوباً، على منع الجبهة الداخلية من الشعور بالأمان، عبر القصف المتواصل لمدَيات مختلفة في الأراضي المحتلة، يزيد من هذا الضغط الذي يواجهه نتنياهو بتصعيده المتزايد. وهذا يرجّح حقيقة أن نهاية نتنياهو ستكون قبل ما يأمله البعض من إنهاء سيطرة "حماس" على غزة، سواء كان ذلك في ظل وقف لإطلاق النار أو دونه؛ فلم يعد المجتمع الإسرائيلي يتحمّل استمرار نتنياهو وعنترياته في الحكم، بينما تُبْدي "حماس" مرونة بشأن مستقبل سيطرتها على القطاع بعد إنهاء العدوان الإسرائيلي.

8 – خاتمة:

ترى أغلبية الإسرائيليين أن إصرار بنيامين نتنياهو على تحقيق ما يُسَمّيه –النصر الكامل– على "حماس"، دون أي اعتبار للعواقب أو التكاليف، قد أصبح جزءًا من المشكلة. فهو يمارس لعبة ساخرة، مُستخدماً الحرب لخدمة أهدافه السياسية الشخصية. وقد سَئم الإسرائيليون، الذين يؤيّد أغلبهم الجهود الرامية إلى القضاء على "حماس"، هذه اللعبة". يقول نتنياهو إن: « لبّ سياستنا هو النصر المطلق على حماس. هذا شرطٌ مُلزِم للحفاظ على أمن إسرائيل. هذه هي الطريق الوحيدة لضمان المزيد من اتفاقيات السلام التاريخية التي تنتظر على الأبواب. النصر المطلق يوجّه ضربة قوية لمحور الشر، المُكوّن من إيران وحزب الله والحوثيين؛ وبالطبع "حماس". وإذا لم يحدث هذا، فإن المجزرة التالية هي مسألة وقت؛ وإيران وحزب الله سوف يحتفلون بذلك، وسوف يُقوّضون الشرق الأوسط». وتابع يقول: "أنا أركّز اهتمامي بأمر واحد رئيس، وهو النصر المطلق. نحن في الطريق إلى هذا النصر، ونتقدّم نحوه طيلة الوقت. أبطالنا لم يسقطوا سدى.. هذا الموقف يمثّل الغالبية الساحقة من الشعب. يوجد هنا وهناك بعض المحلّلين الذين يقولون إن هذا غير ممكن. لكن من المهم أن تعرفوا أنه صار في مُتناول اليد.

هذه التصريحات إنّما تدل على نوايا ومخطّطات نتنياهو الخبيثة، التي من المفترض أن يكون لها تأثير حاسم على مُجريات حرب غزة وتداعياتها، خاصة أن المتحدّث ما زال على رأس هرم اتخاذ القرار في دولة الاحتلال. وبعد مراجعة عدد من لقاءات نتنياهو مع جنوده وضبّاطه في الأسابيع الأخيرة، تبيّن أنّه لم يتطرّق لموضوع

المُحتجزين مطلقاً. وهذا ليس صدفة، فهو يحاول تجنّب الحديث عن الموضوع لحساسيّته الإنسانية والمعنوية؛ ولا يفعل ذلك إلّا مضطراً، وفي سياقات محدّدة. وما غاب عن خطابات نتنياهو الأخيرة لا يقل أهمية عمّا جاء فيها، لأنّه ليس معنياً بوقف إطلاق النار قبل تحقيق أهدافه المعلنة، التي يظن أنها ستُنقذه من السقوط الحر إلى الهاوية. وللمقارنة، فإن معظم القيادات الإسرائيلية لا تتطرّق إلى أهداف الحرب، من دون أن تذكر إعادة المُحتجزين كهدف مركزي، وبعضها تعتبره الهدف الأوّل. وعند الحديث عن صفقة تبادل جديدة، يجب الانتباه إلى أن نتنياهو بدَأ في الكواليس بتحريك حملة معارضة لها؛ ويظهر ذلك في تصريحات وزراء مقرّبين منه في جلسات الحكومة، وفي الأجواء السائدة في وسائل الإعلام التابعة له، مثل القناة 14، التي يسود برامجها إجماع ضدّ الصفقة. ومن المعروف عن نتنياهو أنه، وعلى مدى عشرات السنين، كان يطلب من قيادات يمينية أن تُعلن عن مواقف يستغلها هو، محلياً وخارجياً، للامتناع عن اتخاذ خطوات معيّنة. وهكذا يمكن تفسير تصريحات وزراء الليكود ضدّ الصفقة، على أنها كانت وفق الطلب. كما أن نتنياهو يحتمي بعائلات جنود قتلى يستدعيها لتطلب منه مواصلة القتال حتى «النصر المطلق»، في مقابل عائلات مُحتجزين تضغط للقبول بشروط التبادل، حتى لو كان منها وقف القتال. وهو لا ينسى أن يبث بطرق مختلفة أن أهالي المُحتجزين هم من اليساريين المُناهضين له أصلًا. ويعتقد نتنياهو أن تحرير آلاف الأسرى الفلسطينيين ووقف الحرب هو انتصار لحماس وهزيمة له. هو بالطبع مستعد لصفقة بالمقاييس الثلاثة التي وضَعها: لا لتحرير الآلاف، ولا لوقف الحرب، ولا للانسحاب. ولكن هذه شروط من المستحيل أن تقبل بها "حماس" في إطار صفقة شاملة. والأمر الممكن نظرياً هو تطبيق المرحلة الأولى من الصفقة المقترحة، التي تشمل هدنة مؤقّتة لمدّة شهر ونصف الشهر. وإذ يخشى نتنياهو أن تؤدّي الهدنة لاحقاً إلى وقف لإطلاق نار دائم، وإنهاء الحرب من دون تحقيق أهدافها وأهدافه منها، فهو يحاول إفشال المرحلة الأولى إذا استطاع الصمود أمام ضغط العائلات والإدارة الأمريكية والمعارضة الداخلية.

واللافت للانتباه في تصريحات نتنياهو الأخيرة، هو إصراره على «النصر المطلق»، في حين أن بقيّة القيادة الإسرائيلية لا تستعمل هذا التعبير. وهو يتحدّث بهذه الصيغة لأنّها تمكّنه من إطالة الحرب بلا حدود. ويرى نتنياهو أن وقف الحرب من دون تحقيق «النصر» يعني أن تحلّ به ثلاث كوارث:

الأولى، خسارة السلطة؛ وهو يصر على البقاء فيها، وليس مستعداً للتنازل عنها أبداً لغيره، ويعرف بالتأكيد أن المُظاهرات والاحتجاجات ولجان التحقيق، وربما التمرّد الداخلي في الليكود، ستُجبره على النزول عن «العرش».

وعليه، هو يحاول خلق معادلة تحميه من ذلك، عبر مواصلة ضجيج الحرب وتحقيق إنجازات تكتيكية فيها، تمكّنه من خوض المعركة السياسية مُسلّحاً بالادّعاء بأن مُعارضيه والمؤسسة الأمنية مسؤولون عمّا حدث في السابع من أكتوبر، وهو مسؤول فقط عن النصر المطلق وتقويض "حماس".

الثانية، السجن؛ فنتنياهو يعرف تماماً مصير أولمرت، الذي قرّر خوض الحرب على لبنان عام 2006، وخرَج منها تلاحقه لعَنات الإخفاق والفشل، ما سهّل إدانته في المحكمة وسجنه، بعد ما استقوى عليه أقرب الناس إليه، فشهدوا عليه وقدّموا أدلّة دامغة ضدّه، أدّت إلى إدانته ورمْيه خلف القضبان. ولو خرج أولمرت من الحرب منتصراً في حينه، لأصبح «بطل إسرائيل»، ولن يجرؤ أحد على التورّط بالمساس به. ونتنياهو يخشى أن يكون هذا هو مصيره؛ وعنده ما يكفي من الأسباب لذلك.

الثالثة، لعنة التاريخ؛ فوالد نتنياهو مؤرّخ، وهو نفسه شديد الاهتمام بميراثه التاريخي، ويعتبر نفسه ثالث القيادات المؤسّسة للصهيونية، بعد هرتسل وبن غوريون، خاصة أنّه صاحب سجل أطول مدّة في رئاسة حكومة الدولة الصهيونية (17 عاماً). وهو يعرف تماماً أنه إذا انتهت الحرب بالفشل، فسيخسر المنصب، وقد يُسجَن؛ وستلحقه اللعَنات طيلة حياته، وحتى بعدها. وبعد أن سوّق نفسه بأنه «حامي أمن إسرائيل»، سيصبح ماحي أمنها.

إن نتنياهو، في الواقع، ليس غبياً لهذا الحد حتى يعتقد فعلاً أنه يستطيع تحقيق «النصر المطلَق» على أرض الواقع؛ لكنّه يُراوغ ويُناور بهذا التعبير الطنّان لإطالة الحرب ريثما يحقّق بعض الإنجازات التي يمكن أن يلوّح بها لترسيخ بقائه واستمراره في الحكم. وكون «النصر المطلق» هدفاً مستحيلاً لا يقلّل من خطورته، بل قد يزيدها. فالسعي لهذا الهدف يُترجمه الجيش بالمزيد من الإجرام والقصف والدمار والتهجير والإبادة والمجازر الجماعية والمذابح، وبالاستمرار بذلك طالما لم يتحقق الهدف، استناداً إلى قاعدة «ما لا يأتي بالقوّة يأتي بالمزيد من القوّة».

وهكذا تحوّل «النصر المطلق» إلى أخطر وأفظع هدف يمكن تخيّله، بالذات لأنه شبه مستحيل، ما يعني الاستمرار بحرب الدمار والإبادة نحو غاية لا يمكن الوصول إليها؛ وهي قد تتحوّل إلى «حرب لا تنتهي»، ينفلت فيها نتنياهو لأشهر وسنوات إن لم يجد من يلْجمه.

حتى الآن، ما يزال نتنياهو قادراً على فرض موقفه على القيادة السياسية والأمنية في الكيان. والسؤال هو: كيف يمكن مواجهة ذلك فلسطينياً وعربياً ودولياً؟

قبل الاجتهاد في الإجابة، لا بدّ من التنويه بأنه يجب عدم تصديق تصريحات المسؤولين الأمريكيين، وبضمنهم وزير الخارجية بلينكن، الذي يزور المنطقة مراراً وتكراراً في حرَكة بلا برَكة؛ فهم يبيعوننا كلاماً ووعوداً كاذبة، ويعطون كلّ الدعم العسكري والمخابراتي والاقتصادي والسياسي للجرائم الإسرائيلية. وعلينا أن نصدّق قذائفهم القاتلة وليس كلامهم، حتى لو كان وعداً فارغاً بالاعتراف بدولة فلسطينية بلا جغرافيا؛ وبالتالي فسيف المقاومة في الميدان أصدق إنباءً من الكذب على منصّات الثرثرة والأكاذيب الكلامية.

إنّ الولايات المتحدة داعمة ومُشاركة لإسرائيل في حربها الوحشية على قطاع غزة. وهي حتى لم تطلب وقف الحرب؛ فكيف يصدّق البعض أنها ستحقّق هدفاً لا تسعى إليه؟ كما أنها أعلنت المرّة تلو الأخرى، أنها تدعم «القضاء على حماس»؛ وهذا بالضبط ما تسعى إليه "إسرائيل"، التي تقوم استراتيجية حكومتها الحالية على "حسم الصراع" وفرض أمر واقع لصالحها فقط، يقضي على خيار التسوية وإمكانية قيام الدولة الفلسطينية. وفي المقابل، لا بدّ، إذن، من ذات فلسطينية فاعلة ومُدركة لثقل خطورة اللحظة التاريخية، تعمل فوراً لبناء قرار وطني مُستقل ومُوحّد لا يأخذ إذناً من الإدارة الأمريكية، ولا يستجدي اعترافاً من "إسرائيل".